بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول

الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد...

نبدأ مستعِينين بالله عَزَّوَجَلَّ في قراءة هذا الكتاب [**منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**] للشيخ العلَّامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

رأيت من المفيد جدًّا لنا جميعًا بهذه المناسبة الطيِّبة أن أقف وقفةً أسأل الله جَلَّوَعَلَا أن ينفعنا بها عن حياة الشيخ، وتذكَّرتُ كلمة تُنقَل عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولها مغزى، يقول: "مُذاكرة قليل من سِيَرِ الرجال أحبُّ إليَّ من كثير من الفقه"، وهذه لها مغزى؛ لأنَّ قراءة سِيَر الرجال الأفذاذ الذين مَنَحَهم الله عَزَّوَجَلَّ الجَلَد والصبر والذكاء والهِمَّة العالية في الطلب والتحصيل، والجِد والاجتهاد، هذه في غاية النَّفع لطالب العلم من أجل تحصيل الفقه.

ولهذا يُطلَب من طالب العلم أن يُخصِّص أوقاتًا من حياته لمراجعة سِيَر النُّبلاء، وسِيَر العلماء الأفاضل، وتاريخهم بدءًا من الميلاد والنشأة، ويتأمَّل في حياته، يجد فيها من الأمور التي تدفعه للصبر على الطلب والتحصيل، والجِد والاجتهاد شيئًا كثيرًا.

وهذا الإمام من هؤلاء الأئمة الأعلام الذين كُنَّا نقرأ سِيَرهم في سِيَر السلف المتقدِّمِين.

وعندما تُطالع سِيرة هذا الرجل وحياته وأخلاقه وآدابه كأنَّك تقرأ سِيرة أحد الأعلام المتقدِّمِين، حتى عندما تقرأ حفظ الرجل للعلم، يُذكِّرك بالحُفَّاظ الأوائل في قوة حِفظه، وكثرة محفوظاته، وشِدَّة استحضاره لِمَا يحفظ، وبراعته مع قوة الحِفظ بسرعة الاستشهاد والاستدلال، وإيراد المحفوظ في مناسبته، سواءً في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والأشعار التي حَفِظَ منها الآلاف المؤلَّفة.

فكانت حياة هذا الرجل حياة عامرة بالجِدِّ والعطاء، حافلة بالعلم والتحصيل منذ نعومة أظفاره رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فرأيتُ أن نخصص هذا اللقاء لوقفة مع حياة هذا الإمام، وستكون هذه الوقفة:

- **أولًا**: في ترجمة مختصرة لحياته مع بعض المُلَح واللطائف والفوائد التي في حياة هذا الإمام.

- **ثم وقفة ثانية**: عن أَمْرٍ بَرَزَ فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجال الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا وما أتاه الله عَزَّوَجَلَّ من الحِكمة البديعة، إضافةً إلى سعة العلم الذي مَنَحَه الله جَلَّوَعَلَا إياه.

فكانت محاضراته كلماته التي يُلقيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوية التأثير يتأثر بها أقوام، بل تتبدَّل بها عقائد، محاضرة واحدة ربَّما بإذن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ تتغيَّر بها مدينة بكاملها، أو قرية بتمامها عن عقائد متأصِّلة بما أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ به من التوفيق والتسديد، وما آتاه الله جَلَّوَعَلَا من الحكمة.

وهذه المعاني -حقيقةً- نحتاج إليها، وسأضرب على ذلك بعد الكلام على الترجمة له رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثالَيْن جميلَيْن جدًّا فيما آتاه الله من حكمة وسِعة بيانٍ، وقوة إقناع، وطريقة بديعة في الإقناع بحيث أنَّه يؤثِّر تأثيرًا قويًّا على مَن أمامه ولاسيما من أرباب البِدَع والمتصوِّفة، ومَن تأصَّلت فيهم عقائد باطلة.

وكما ذَكَرتُ: نحن نحتاج إلى أمثال هذه النماذج والأمثلة حاجةً ماسَّة:

نقف أولًا مع ترجمة لحياة هذا الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو: الشيخ محمد الأمين -اسم مركَّب- بن محمد المختار -أيضًا اسم مركَّب- بن عبد القادر الجكني الشنقيطي.

وُلِدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موريتانيا سنة ألفٍ وثلاثمائة وخمسٍ وعشرين (١٣٢٥)، ونشأ يتيمًا؛ تُوفِّيَ والده وهو صغير السن ما زال في حِفظه لجزء عمَّ وجزء تبارك في تلك السنوات من عمره وهو صغير.

وعاش في بيت أبناء خاله وهم في الوقت نفسه أبناء عمومته؛ لأنَّ والده كان قد تزوَّج بنت عمِّه، فعاش في بيت أبناء عمِّه وهم في الوقت نفسه أخواله، وكان بيت علمٍ وفَضْل، وتلقَّى عليهم في البيت نفسه علومًا كثيرة في النحو والأنساب، حتى إنَّ زوجة أحد أخواله كانت عالمة، قرأ عليها الأنساب، وحَفِظَ عليها متون في البيت، هذا قبل أن ينتقل إلى مرحلةٍ أخرى في الطلب؛ فهو مع اليُتْم نَشَأَ في بيت عِلم.

ويقول -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- يقول: كنتُ وأنا صغير أَمِيل للَّعب، وكانوا حريصين عليَّ في الحِفظ والقراءة؛ فكانوا يُحفِّظُونني وأنا صغير الأحرُف الهجائية بالحركات -بَ با- بِ بِي- بُ بُو- فكانوا يُحفِّظُونني إياها وأُرِيد أن ألعب، يقول: فكانوا أولًا حفَّظُوني الحروف بدون الحركات ثم بدأوا يُحفِّظُونني الحركات، فلمَّا وصلنا الباء أو التاء بالحركات قلتُ لهم: باقِي الحروف هكذا؟ كان ذكي من صِغَره.

قالوا: نعم. قلتُ: أنا أقرأ لكم إياها بدون تعليم وتتركونني ألعب.

فكمَّل لهم بقية الحروف على القاعدة مجرد ما أعطوه مثالَيْن أو ثلاثة أتمَّ القاعدة ببقية الحروف بدون أن يُلقَّن، وهذه مسألة تحتاج في الصغير إلى تلقِين؛ لكنه كان ذكيًّا.

فلعلَّ هذه القصة أيضًا مِمَّا شجَّعت أهل بيته أن يزِيد اهتمامهم به وعنايتهم به؛ لأنَّه ذكي وحافظ ونبيه، وملامح الذكاء والنباهة تظهر عليه من الصِّغَر؛ لعلَّ هذا مِمَّا دَفَعَهم لمزِيد العناية والاهتمام به.

والدته رَحِمَهَا ٱللَّهُ لمَّا رأت نبوغ ابنها، ورأته أنَّه أَخَذَ حاجته من العِلم في البيت الذي هو فيه والمكان الذي هو فيه، جهَّزته ليرحل في طلب العلم، وأعدَّتْ له جملَيْن:

- جَمَل للمركوب والكُتُب التي له.

- وجَمَل للنفقة والزاد.

وأرسَلَتْ معه خادمًا وبعض البقرات، وأرسلته يطلب العِلم، يرحل لطلب العلم بعد أن جهَّزته هذا التجهِيز، وهذا أَمْرٌ ذَكَرَه هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأيضًا كَسَتْه ملابس كأحسن ما يكون من الملابس وودَّعته ليرحل في طلب العلم.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ هِمَّته عالية جدًّا أيام الطلب، هِمَّته عالية في التحصِيل والحِفْظ وضَبْط المسائل، وتميَّز بهذا الأمر في الاهتمام البالغ بضَبْط المسائل، وذَكَرَ قصةً حَصَلتْ له تكشف عن الهِمَّة العالية التي كان عليها -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- في الإتقان والضبط وتحرير المسائل، والحِرص على استِيعابها تمامًا وضَبطها، فيَذْكُر قصةً حَصَلتْ له تُبيِّن أنَّه -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- كان لا يُفوِّت مسألةً حتى يستوعبها.

فكان في تِلك الرحلة دَرَسَ على أحد المشايخ، وكان من عادته يبسُط المسائل ويُحرِّر القول فيها؛ لكنَّه مرةً من المرات في مسألةٍ من المسائل شَرَحَ له الشيخ الدرس ولكنه لم يَشْفِ ما في نفسه، وكان الدرس في الضحى ولم يروِ غليله، فخَرَجَ من الشيخ وهو لا يزال هذه المسألة لم يُروَ غليله فيها.

فرَجَعَ إلى الكُتُب بَدَأ من الظُّهر مع الكُتُب يبحث في هذه المسألة بالذات ويُحقِّق القول فيها ويراجع أقوال العلماء إلى العصر، وما زال إلى المغرب، صلَّى المغرب ورَجَع، ثم إلى العشاء وهو ما زال لم يتكشَّف له جوانبها، واستمرَّ في الليل حتى أنَّه الخادم الذي معه أتى بحطب وأخذ يُشعل بالحطب النار وهو مع الكُتُب يقرأ إلى الفجر.

فلمَّا ارتفع النهار يقول -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-: "فرَغْتُ من درسي وزال عنِّي لَبسي".

فكانت هذه الهمَّة العالية فيه -يعني- حتى المسألة الواحدة ما يَتْرُكها، ولا يُفوِّتها حتى يجد أنَّه ارتوى تمامًا، وتجلَّتْ له تمامًا واتَّضَحَتْ.

فهذا نموذج في حياته من الأسباب التي أصبح بها عالمًا مُحقِّقًا بتوفِيقٍ من الله عَزَّوَجَلَّ، حتى إنَّه قال -كما سيأتي-: "ما من آيةٍ من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا ودَرَسْتُها دراسة مستقلَّة" كل آية.

فهذا الواقع الذي كان يعيشه في الطلب يدفعه إليه هِمَّة عالية، ما تقنع بالقليل أو اليسير، وتصبر وتتحمَّل.

فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتوفِيق من الله عَزَّوَجَلَّ وما مَنَّ الله عليه به من الجَلَد والصبر على طلب العلم كان ذا غزارةٍ عجيبةٍ في العِلم، حتى قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا توجد آيةٌ في القرآن إلَّا دَرَسْتُها على حِدة"، وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كلُّ آيةٍ قال فيها الأقدمون شيئًا فهو عندِي".

ومرَّ في آية كان يتكلَّم على بعض معانِيها فقال له أحد الحاضرِين: «سُلَيْمان الجمل ما ذَكَرَ هذا»؛ سُلَيْمان الجمل تعرفون له في الجلالين حاشية على الجلالين.

قالوا له: "سُلَيْمان الجمل ما قال هذا"؛ يعني: كأنَّه يقول: سُلَيْمان الجمل مع اطِّلاعه واستِيعابه ما ذَكَرَ هذا. فقال الشيخ: "والله إنِّي أعلم من سُليمان هذا بكذا وكذا".

فيقول -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-: «كل آيةٍ قال فيها الأقدمون شيئًا فهو عندي»؛ وهذا يدلُّ على استقرائه الواسع، واطِّلاعه الكبير على أقاويل السلف والمأثور عنهم.

هذه تُذَكِّرنا بكلمة قالها ابن تيمية في مناظرته لبعض المتكلِّمِين لمَّا قالوا له: إنَّ السلف عندهم تأويل لبعض آيات القرآن. قال: «أنا قرأتُ مائة تفسير للسلف أو أكثر ما وَقَفْتُ على شيء من هذا الذي تقولون، وأتحدَّاكم لمدة ثلاث سنوات أن تقرؤوا كُتُب السلف في التفسير وتُخرجوا لي آيةً واحدة أوَّلوها».

هذا التحدِّي يقوله عن ماذا؟ يقوله عن امتلاء بِمَا كان عليه السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من عقيدة من خلال الآثار التي تتبَّعها ووَقَفَ عليها.

كان الشيخ محمد الأمين -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- حافظة وحَفِظَ الشيء الكثير من الأحاديث -أحاديث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- وآثار السلف، وحَفِظَ أيضًا من أشعار العرب ودواوينهم، والمنظومات العلمية في أنواع الفنون في الفقه، والتفسير، والمُصطلح، واللغة، والأنساب، حَفِظَ شيئًا كثيرًا.

وكان أيضًا له شيء من الاهتمام في صِغَره بالشِّعر، حتى أنَّه أَلَّفَ منظومة في الأنساب في صِغَره سمَّاها [**خالص الجُمَّان**]، ونحن عرفنا أنَّه قرأ علم الأنساب على زوجة خاله؛ فألَّف منظومة طويلة جدًّا في الأنساب وسمَّاها [**خالص الجمَّان**]؛ ولكن يقول: "دفنتُها"؛ لأنني أَلَّفتُها لأبرُز على أقراني، يعني: ما كانت النيَّة صافية، يقول: "فَدَفنْتُها"؛ مع أنَّها منظومة -يعني- واسعة، حافلة، جميلة؛ لكن لمَّا شابَهَا شيءٌ لا يرضاه دَفَنَها في التراب.

لمَّا أنهَى رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحصيله على العلم على العلماء في بلده ورَحَلَ في طلب العلم في أنحاء منطقته وُجِدَت عنده رغبة لأداء فريضة الحج، وكانت نيَّته أن يحُجَّ ويرجع إلى بلده -هكذا كانت النية-، ففي سنة ألف وثلاثمائة وسبعة وستين (١٣٦٧) قلنا: أنَّه وُلِدَ عام (٢٥)، أي كم كان عُمره؟ (٤٢).

ففي تلك السنة من عمره وُجِدَ عنده رغبة أن يحُجَّ، وبدأ رحلة الحج، رحلة الحج خَرَجَ في تلك الرحلة وهو العالِم الذي ذاع صِيته في بلده في العلم وصارت له مكانة، وكان يُرجَع إليه في الفتوى وفي القضاء، وفي مسائل كثيرة جدًّا في ذلك السن من عمره (اثنان وأربعين)، فرَحَلَ وهو عالِم مشهور في بلده ذاع صِيته.

وأثناء الرحلة كان يمُرُّ بمناطق، وفي كثيرٍ منها يعرف أهل تلك المناطق أنَّ الذي قَدِمَ عليهم هو العالِم الفلاني.

فكان من الجميل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حياته أنَّه وَصَفَ رحلته هو بنفسه، وَصَفَ رحلته بلغة العالِم الأديب الشاعر، فلمَّا تقرأ رحلته -رحلة الحج التي سطَّرها هو، وهي مطبوعة كَتَبَها هو بنفسه: «مررنا بكذا.... رَكِبنا كذا»-؛ يَصِفْ لك الرحلة من أوِّلها إلى آخرها، فيها مُلَح جميلة ولطائف وطرائف وأشياء ممتعة، وأشياء علمية.

يقول: «سُئلت -مثلًا-.... مرَرْتُ على قرية كذا فسألني أهلها عن -مثلًا- حُكم.... » من المسائل التي مرَّت وهي دقائق علمية، يقول: "سُئلت عن الحاكم الذي ولَّاه على المسلمين كُفَّار"؛ تولية المسلم على المسلم بتولية الكافر، يقول: "سُئلت عن هذه المسألة فأجبتُ"، ويذكر الجواب تسع صفحات أجاب فيها عن هذه المسألة؛ فيَذْكُر الأسئلة التي وَرَدَتْ عليه.

أحيانًا يُسأل عن بيت من الشعر، وأحيانًا يُسأل عن وَصْفٍ معيَّن، أحيانًا يُسأل عن مسائل نحوية، وخُذْ من البَسْط أجوبة من الحافظة، لكن خُذْ من التحقيق ومن البَسْط تجدها كلها الأجوبة مبثوثة يذكُرها، فتجد بعض المسائل في تسع صفحات، في عشر، في أقل، في أكثر مليئة باللطائف ومليئة بالطرائف جدًّا.

حتى الأشياء التي -يعني- الطريفة التي مرَّتْ عليه في رحلته سجَّلها، يقول: "كُنَّا مرة في مجلس في السودان، وكنَّا نتحدَّث عن بعض المسائل، فكان أحد العوام حاضر عندنا في المجلس فقال لنا: يا شيخ، أنا أغبطكم بمروركم على هذه المنطقة؛ لأنَّ فيها مكان شريف"، العامي يقول: لأن فيها مكان شريف.

يقول: "قلتُ له: أيش المكان الشريف الذي في المنطقة؟ قال: فيها الخرطوم.

قلتُ: وما الخرطوم؟ قال: ذَكَرَه الله في القرآن ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [سورة القلم، الآية:١٦]"؛ فكل هذه يَذْكُرها.

ومن الطرائف التي ذَكَرَها -هي ليست طريفة وإنما أسلوب الشيخ- يقول: "كان معنا..."، في منطقة مرَّ عليها يقول: "استأجرنا سيارة، يقول سائق السيارة: قِيل لنا: أنَّ أصله عربي من الشام، يقول: كان عفيف الجبهة"؛ كان الرجل عفيف الجبهة، إيش تفهم منها؟ يقول: كان عفيف الجبهة حتى أنَّ من عِفَّته لجبهته أنَّ جبهته لا تُلامس الأرض، يقول: فهو لا يُصلِّي فضلًا عن أن يُفكِّر في الصلاة -عفيف الجبهة-، حتى أنَّ بعدها بصفحات قال: ثم ذَهبنا فقال لنا عفيف الجبهة: الآن وقت.... يعني: ابتلوا بهذا السائق.

الشاهد: هذه لفتة لكم جميعًا فاقرءوا الرحلة، أن تقرئوا رحلة الشيخ إلى الحج التي سطَّرها بقلمه مليئة بالتُّحَف والفوائد واللطائف والتحقيقات، والمسائل العلمية التي كان يبسطها -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-.

بعد الحج توجَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى المدينة، ثم نشأت عنده رغبة أن يبقى في المدينة، النية أصلًا لمَّا جاء أن يحُج ويرجع؛ لكن لمَّا وَصَلَ إلى المدينة وُجِدَتْ عنده رغبة أن يبقى، وقال كلمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: "ليس من عملٍ أعظم من تفسير كتاب الله في مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"؛ فوُجِدَت عنده رغبة إقامة في المدينة من أجل أن يُفسِّر القرآن في مسجد الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وحقَّق الله عَزَّوَجَلَّ له رغبته هذه فأتمَّ تفسير القرآن كاملًا، قِيل: مرة. وقِيل: مرتين في مسجد الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبدأ بالمرة الثانية أو الثالثة ولم يُتمَّها، وَصَلَ إلى سورة التوبة.

ومع ذلك أيضًا كان مشتغل -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- بتفسير [**أضواء البيان**]، كان يُعدَّه في بيته ويُحرِّره، وكان يأخذ منه جُهدًا عظيمًا حتى ذَكَرَ ابن الشيخ عبد الله: أنَّ في بعض المرات يدخُل عليه ضيوف في البيت ما يشعُر بهم؛ باله ذاهب يجمع الشواهد ويستحضر الشواهد للآية التي كان بصدد الكلام عليها؛ فكان يدخل عنده بعض الضيوف ما يشعُر بهم من جَمْعه لذهنه في جَمْع شواهد الآية من الأحاديث أو اللغة.

درَّس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دار العلوم في المدينة، ودرَّس بالمعهد العلمي بالرياض وكلية الشريعة، ودرَّسَ بالجامعة الإسلامية، واستمرَّ مدرِّسًا فيها حتى وافاه الأجل.

وكان عضوًا -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- في المجلس الأعلى للجامعة، وعضوًا أيضًا في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، وعضوًا في المجلس التأسيسي لرابطة العالَم الإسلامي.

وله مؤلَّفات كثيرة جدًّا معروفة عند طُلَّاب العلم، من أشهرها: [**أضواء البيان، ومَنْع جواز المجاز، ورفْع هام الاضطراب عن آي الكتاب، وشرْح مراقي السعود، وبيان الناسخ والمنسوخ**]، وغيرها من المؤلَّفات التي جُمِعَت مؤخَّرًا في مجموع أشرف عليه العلَّامة الشيخ بكر أبو زيد -حَفِظَه الله ومتَّعه بالصحة والعافية-.

وهو من الذين لازموا الشيخ ملازمة طويلة، وأخذوا عنه علومًا عديدة، منها: عِلم الأنساب، حتى يُقال: أنَّ الشيخ قال له: "ما أَخَذَ عني علم الأنساب في هذه الديار إلَّا أنت"؛ فالشيخ اعتنى -وهذا من بِرِّه بشيخه ووفائه معه- اعتنى بمؤلَّفاته، وأشرف على إعدادها وطَبْعها.

فطُبِعَ [**أضواء البيان**]، وطُبِعَ أيضًا تفسيره الذي وُجِدَ من تفسيره بصوته، اعتنى به الشيخ الفاضل خالد السبت، فُرِّغ من الأشرطة، وفُرِّغَ ما وُجِدَ منه من الأشرطة، وجُمِعَ في خمس أو ست مجلَّدات بعنوان «**العَذْب النمير**»، وطُبِعَ مع المجموع، وكان قبل ذلك طُبِعَ مُفردًا، وبَذَلَ فيه الشيخ خالد جهود واسعة، وصَبَرَ عليه صَبْرًا ما يصبر عليه إلَّا قلائل من طلبة العلم.

أقول ذلك عن شيءٍ وَقَفْتُ عليه؛ لأنَّه كان جار لي، وأعرف الجُهْد الذي بَذَلَه، والوقت الطويل من حياته الذي ضحَّى به من أجل أن يخرُج هذا الجُهد محقَّقًا منقَّحًا مُعتَنَى به عناية فائقة جدًّا ودقيقة -فنسأل الله جَلَّوَعَلَا أن يُثِيبه أعظم الثواب-.

الشيخ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- تُوفِّي في يوم الخميس في السابع عشر من شهر ذي الحجة، عام ألف وثلاثمائة وثلاثة وتسعين (١٣٩٣)؛ كم عمره عندما تُوفِّي إذا كان ولادته (٢٥)؟ ثماني وستين، يعني: قرابة السبعين سنة، تُوُفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مكة بعد الحج، تَعِبَ في حجِّه ومَرِض وبعد الحج بأيام قلائل تُوفِّي -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-، وكان التعب ظاهرًا عليه قبل الحج حتى إنَّ بعض طُلَّابه ألحُّوا عليه ألَّا يحُج قالوا: "صحَّتك ما تحتمل"، وحاولوا معه.

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا تُحاولوا؛ سَفْرتي للندن للعلاج أريد أن أُكفِّرها بهذه الحجة؛ لا تحاول معي"، وحجَّ وتَعِبَ في آخر حجَّة، وكان هو التعب والمرض الذي مات فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هنا في المملكة وفي المدينة التقى ببعض المشايخ، وتعرَّف هنا على كُتُب أئمة الدعوة وكُتُب شيخ الإسلام ابن تيمية وقَرَأها، واعتنى بها واستفاد منها كثيرًا.

وأيضًا وجوده في المدينة فَتَحَ له أبوابًا وآفاقًا أُخرى غير التي كان عليها في بلده، فَتَحتْ له أبواب من خلال ما يرى من أصناف الناس، وأصناف المذاهب الفقهية، فبَدَأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحياة، أيضًا وَفرة الكتب وتيسَّر تيسُّرها ووقوفه على كُتُب ما وَقَفَ عليها في بلاده، واعتنى عناية خاصة بكُتُب ابن تيمية -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-.

وقال كلمة قالها عن علم من خلال قراءته لكُتُب شيخ الإسلام، قال كلمة في حق كُتُب شيخ الإسلام ابن تيمية وفي حقِّه هو -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-، قال: "ما رأيتُ أحدًا أعمَقَ فَهْمًا وأوسع اطِّلاعًا من هذا الرجل"؛ يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واستفاد كثيرًا من كُتُبه.

هناك كلمات لطيفة سطَّرتُها لكم مبثوثة في ترجمته نَقْلًا عن طُلَّابه، ومنها عن بعض أبنائه، كان يقول -أشياء قليلة انتقَيْتُها-، كان يقول -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-: "الريال الواحد والألف ريال سواء، المهم أن يكون صرفها سليمًا"؛ أن تُصرَف في.... لماذا؟

لأنَّ «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَه**»؛ فيقول: الريال والألف كلها سواء؛ المهم أن يكون الصَّرْف سليم، صُرِفَتْ في مَصرَفٍ سليم لا يُعاقبك الله عليه يوم القيامة حين تلقاه.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جئتُ من البلد ومعي كَنز قَلَّ أن يُوجَد عند أحد وهو القناعة"، ويقول: "أنا أقدر أن أكون أغنى الناس، ولكن تَركْتُ الدنيا لأنَّني أعلم أنَّه إذا تلطَّخ بها العبد لا ينجو منها إلَّا مَن عَصَمَه الله".

اغتاب مرةً رجل رجلًا في مجلس الشيخ؛ فنَهَرَه الشيخ ونهاه، فقال المغتاب: "أنا الذي أتكلَّم"؛ يعني: الكلام أنا الذي أتحمَّله، وصادر منِّي أنا، قال: "أنا الذي أتكلَّم".

قال: "أنا المتكلِّم لا أنت"؛ فرَدَّ عليه الشيخ بقوله: "أنا شايب بين جنبيَّ سورة البقرة، تسكُت بأدب أو تخرُج"، فما كان -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- يُتِيح فرصة ولا لأي أحد أن يغتاب أحدًا في مجلسه؛ فينهَى عن ذلك -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-.

يقول ابنه عبد الله: "سألتُ أبي: ما الذي يطرُد وساوس الشيطان؟ قال: تدبُّر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ".

أريد أن أنتقل معكم إلى جانب نحتاج إليه كثيرًا مفيد فائدة عظيمة في منهج الشيخ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- في الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ مع العلم الواسع العميق، والحِفظ الكبير، والعناية الدقيقة بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما نحسَب الرجل عليه من الصِّدْق والإخلاص -نحسبه والله حسيبه-، كانت كلماته مؤثِّرة جدًّا:

كان يُذكِّر الناس بالقرآن: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [سورة ق، من الآية:٤٥]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [سورة ق، من الآية:٣٧]، وكان أسلوبه في التذكِير بالقرآن مدهش جدًّا؛ لأنَّه يجمع لك من حِفظه جَمعًا عجيبًا للآيات التي في الموضوع الذي يتحدَّث عنه، ويجمع لك الآيات جَمعًا عجيبًا يأخذ القلوب ويشُدُّها، ويؤثِّر فيها تأثِيرًا عجيبًا.

فهذه الطريقة نحتاج جميعًا أن ننظُر إليها مرات وكرَّات حتى تكون طريقة لنا في الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وسأضرب مثالَيْن من حياته -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-، ننظُر هذه الطريقة والنَّفْع العظيم الذي ترتَّب عليها:

ذَكَرَ الشيخ -وهو من طُلَّابه الذين لازَموه طويلًا- الشيخ عطية محمد سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ العالِم المعروف، ذَكَرَ: أنَّ الشيخ انتُدِب ومعه بعض المشايخ إلى أفريقيا للدعوة إلى الله، وجال في بعض المدن والدول الإفريقية مع المشايخ الذين معه، فكان من المناطق التي سيمرُّون بها منطقة تكثُر فيها الشِّرْكيَّات وعبادة القبور كثرة شديدة، أهل المنطقة متأثِّرين جدًّا بالقبورية والشِّرْك والتعلُّق بالأولياء وعبادتهم من دون الله؛ فطَلَب الشيخ أن يُعلَن له عن محاضرة في تلك المنطقة عن العمل الصالح وأهميته في حياة المسلم، ونحو ذلك.

فأُعلِن عن محاضرة له واجتمع عدد كبير من الناس لسماع المحاضرة عن العمل الصالح، فبَدَأ يتكلَّم عن العمل الصالح وأنَّه الذي به نجاة العبد، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ الخَلْق ليبلوهم أيُّهم أحسن عملًا، وأنَّ كل إنسانٍ بشخصه مُطالَب أن يُصلِح عمله بينه وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا ينفع الإنسان بعد رحمة الله وتوفيقه إلَّا العمل الصالح ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٢].

فبدأ يُوضِّح هذه توضِيحًا بذِكْر الأدلة على أهمية العمل الصالح ومكانته في حياة المُسلم، ثم أَخَذَ يسُوق نماذج كثيرة من حياة الأنبياء، وأنَّ الذي ينفع هو العمل الصالح، وبدأ يأتي بسِيَر الأنبياء نبيًّا تلو الآخر.

قال -مثلًا-: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذَكَر قصة ابنه، وذَكَرَ قول الله لنوح: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [سورة هود، من الآية:٤٦]؛ فقال: نوح لم ينفع ابنه؛ ابنه ينفعه العمل الصالح لو قام به.

قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [سورة التحريم، من الآية:١٠]؛ قال: نوح ولوط أنبياء من خِيرة عباد الله ولم يُغنيا عن زوجتَيْهما شيئًا؛ لأنَّه ما في عمل صالح.

نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا عَمِّ، يَا فَاطِمَة، يَا عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»؛ الذي يُغنِي العمل الصالح.

فأَخَذَ يسُوق نماذج من القرآن ومن السُّنَّة: أنَّ الذي يُفِيد هو العمل الصالح، لا تعلُّق شخص بأشياء أو بأمور؛ الذي يُفِيد أن تُصلِح عملك بينك وبين الله، هذا الذي يفيدك.

الأنبياء -مثل ما ترون- عَرَضَ المسألة هذا العرض وانتهى من محاضرته بهذه الطريقة، آيات كثيرة عَرَضَها لهم من قصص الأنبياء وأحادِيث في هذا الباب، ثم أنهَى محاضرته وانصرف إلى بيته إلى سكنه.

يقول الشيخ عطية: ونحن في السكن جاءنا رجل من كبار هؤلاء، يقول: لمَّا دَخَلَ علينا أنا خَشِيت على الشيخ منه، ظننته أنَّه جاء -يعني- يريد أن يُعنِّف الشيخ أو يتهجَّم أو يتكلَّم على الشيخ، يقول: فدَخَلَ على الشيخ وقال: يا شيخ، أنت اليوم كَسَرْتَ الأصنام التي في بلادنا.

قال: فيقول: فتغافَلَ الشيخ قال: أنا ما رأيتُ أصنام، تغافَل، قال: أنا ما رأيت أصنام ولا....

قال: "لا؛ أنت كَسَرْتَ الأصنام التي في بلادنا، وأول صنم كسَرْته في قلبي أنا"؛ فلاحَظَ أيش؟ الأثر بالقرآن، وبالآيات، وعَرْض الدلائل والنماذج التي تضطرُّ مَن يسمع أن يُسلِّم، تضطرَّه اضطرارًا؛ إلَّا إن كَتَب الله عليه.....؛ وإلَّا تضطرُّه تأخذ بمجامعه، وتضطرُّه اضطرارًا أن يقبَله.

آيات واضحات وحُجج بيِّنات يقرؤُها ويُحسِن في عَرْضها وبيانها حتى تجعل الإنسان يضطر اضطرارًا أن يقبله. هذه طريقة -يعني- بديعة جدًّا.

فمن هذا المُنطلق -ومثال آخر سيأتِيكم الآن- إذا أردت أن تُلقِي في مكانٍ ما أو في منطقةٍ ما تحتاج إلى إعداد جيِّد للآيات والأحاديث، والقرآن نفسه مبارك، وإسماع الناس آيات القرآن فيه تأثِير ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [سورة ص، من الآية:٢٩]؛ القرآن مبارك، وكثير من الناس يُهمل العناية بالقرآن في الوَعْظ والتدريس والتعليم، يُهمله إهمالًا فتذهب البركة؛ فيحتاج الإنسان إلى هذه العناية.

أنا الآن أريد أن أقرأ عليكم نموذج حتى تعرفوا طريقة الشيخ البديعة العجيبة التي تضطرُّ -مثل ما قلتُ لكم- مَن يسمع أن يقبَل، تضطرُّه اضطرارًا أن يقبَل حتى وإن كان صاحب عقيدة فاسدة نَشَأَ عليها يجعل الشيخ أمامه الأمر واضح مثل الشمس؛ فيضطرُّه إلى القبول، خُذوا مثال وإن كان فيه طول لكن فيه نَفْعٌ عظيم.

مثال من دروس الشيخ في المسجد النبوي في التفسير، ودروسه كان يُلقِيها ارتجالًا، فانظروا هذا الكلام الذي ارتَجَلَه الشيخ في مسألة أنَّ الأنبياء لا يعلمون الغَيْب، عندما وَصَلَ إلى قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام، الآية:٥٩].

أَخَذَ يتكلَّم عن معاني هذه الآية إلى أن قال: وقد بيَّن جَلَّوَعَلَا في آيةٍ عامة -يعني: غير الآية هذه- أنَّ الغَيْبَ كلَّه لا يعلمه إلَّا الله كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة النمل، الآية:٦٥]؛ هذه الآية وقفت مرة على كلام لأبي حنيفة أنَّه قال: مَن قال أنَّ محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعلم الغَيْب فهو كافر؛ لأنَّ الله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة النمل، من الآية:٦٥]؛ لا يعلم الغَيْب إلَّا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقد بيَّنَّا فيما مضى أمثلةً لمصداق هذه الآيات، وبيَّنَّا أنَّ أعظم الخَلْق الملائكة والرُّسُل -كان في الكلام شيء من انقطاع- والملائكة لمَّا قال لهم الله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣١]»؛ الآن سيأتي لك بأمثلة كثيرة من الملائكة والرُّسُل تُبيِّن لك أنَّهم ما يعلمون الغَيْب، كلامه مُقنع يُقنعك ضرورةً، يعني: يُقنِع مَن هو في عقيدةٍ أخرى يُقنعه ضرورةً أن يَقبَل، وتابعوا معي!

يقول: "والملائكة لمَّا قال لهم الله: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣١]؛ أجابوا بأن قالوا: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٣٢]، وقوله: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾؛ النكرة فيه مبنيةٌ مع ﴿لَا﴾، والنكرة لا تُبنَى على الفَتح مع ﴿لَا﴾ إلَّا التي هي لنَفْي الجنس".

فمعنى الآية: أنَّهم نفوا جنس العلم من أصله عن أنفسهم إلَّا شيئًا علَّمهم الله إياه.

وهؤلاء الرُّسُل الكرام -عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ- مع ما أعطاهم الله من العلم والمكانة يقولون: إنَّهم لا يعلمون من الغَيْب إلَّا ما علَّمهم الله، هذا سيِّدهم وخاتمهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بيَّنَّا أنَّ الله أَمَرَه قال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٥٠]، وأَمَرَه أيضًا في سورة الأعراف أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٨٨].

وقد قال في أُخريات أيام حياته -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-: «**لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمَا سُقْتُ الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً**»؛ كما هو معروف.

وقد بيَّنَّا أنَّ نبي الله نوح ذَكَرَ الله عنه في سورة هود: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾ [سورة هود، من الآية:٣١]، وقد بيَّنَّا أمثلةً من هذا.

فهذا سيِّد ولد آدم على الإطلاق، وأفضل الرُّسُل، وأعلم الناس -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- رُمِيَتْ أحبُّ أزواجه بأعظم فِرْية -أم المؤمنين عائشة- لمَّا رموها بصفوان بن المُعطِّل في غزوة بني المصطلق، كما قصَّ الله القصةً موضَّحةً في سورة النور.

كان -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- مع ما آتاه الله من العلم والمكانة العظيمة لا يدري أحقٌّ ما قالوا عن زوجته أم كذب؟ وكان يقول: «**كَيْفَ فِيكُم؟**» يعني: عائشة، وفَقَدَتْ منه العَطْف الذي كانت تجده إذا مَرِضَتْ، وكان يقول لها غير دارٍ بالحقيقة، كان يقول لها -أي: الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- غير دارٍ بالحقيقة: «**يَا عَائِشَة، إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَتُوبِي، وَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ**»؛ ما يعلم الغَيْب.

ولم يعلم بالحقيقة حتى أخبره عالِم الغَيْب والشهادة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [سورة النور، من الآية:١١]؛ فسمَّاه «**إِفْكًا**»، ثم قال في آخر الآيات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [سورة النور، من الآية:٢٦].

فلم يعلم الحقيقة إلَّا بعد أن علَّمه الله إياها، لمَّا نَزَلَتْ عليه آيات براءتها في بيت أبي بكر -وانظر حكمة الله الآيات نَزَلتْ في بيت أبي بكر-، أمها موجودة، وهي موجودة، ووالدها موجود ونَزَلَتْ الآيات في بيت أبي بكر، وسُرِّيَ عنه وهو يبتسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**أَمَّا أَنْتِ يَا عَائِشَة فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ**»؛ كل الفترة التي مَضَتْ ما كان يدري عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فقالت لها أُمها -أم رومان-: قُومِي إليه فاحمدِيه. قالت لها: «**والله لا أحمده ولا أحمدُ اليوم إلَّا الله؛ لأنَّه لم يُبرِّأني وإنَّما برَّأني الله**».

خُذ اللطائف... وهذا نبي الله إبراهيم وهو هو ذَبَحَ عجله -لمَّا جاءه الأضياف- ذَبَحَ عِجله وتَعِبَ هو وامرأته بإنضاج العِجْل وحَمْله إليهم كما قال الله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [سورة هود، من الآية:٦٩]؛ ولم يدرِ -هذا الشاهد- أنَّ الذين يُنضِج لهم عِجله أنَّهم ملائكة كِرام لا يأكلون، ما يدري، جاءه أضياف ولا يدري أنَّهم من الملائكة، ولا يدري أنَّهم لا يأكلون الطعام، وتَعِب هو وزوجته في ذَبْح العِجْل وإنضاجه وتقديمه لهم؛ هذا لأنَّه لا يعلم الغَيْب، ولم يدرِ أنَّ الذين يُنضِجُ لهم عِجله أنَّهم ملائكةٌ كرام لا يأكلون.

ولأجل عدم عِلمه بذلك لمَّا لم يأكلوا خاف منهم، ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [سورة هود، من الآية:٧٠]، وما هذا إلَّا لأنَّه لا يعلم بحقيقتهم، وما درى عن الأمر حتى أخبروه.

سألهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [سورة الذاريات، من الآية:٣١]. ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [سورة هود، من الآية:٧٠].

ولمَّا ارتحلوا من عنده ونزلوا على نبي الله لوط، وكانوا في صِفة شباب مُرْدٍ حسنةٍ ثيابهم حسنةٍ رِيحهم خاف عليهم، لوط خاف عليهم وهو نبي؛ لكن لا يعلم الغَيْب ما يعلم أنَّ هؤلاء ملائكة جاءوا ليعذِبوا هؤلاء، خاف عليهم من قومه لأنَّه ماذا؟

الشاهد هنا: لأنَّه لا يعلم الغَيْب، خاف عليهم أن يفعل بهم قومه فاحشة اللواط؛ فحَزِنَ أشد الحُزْن؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [سورة هود، الآية:٧٧]؛ لأنَّه ما يعلم الغيب، ما عَلِمَ أنَّ هؤلاء الذين عنده ملائكة جاءوا وقَدِموا لتعذيب هؤلاء.

وما سبب مساءته بهم وضِيقه ذَرْعًا بهم؟ أيش السبب؟ ينبِّه الناس، انتبهوا إلى السبب!

فقوله: إنَّ ذلك ﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [سورة هود، الآية:٧٧]؛ إلَّا لعدم عِلمه بحقيقة الواقع، حتى قال ذاك الكلام المُؤسف المُحزن: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة هود، الآية:٨٠]؛ هذا كلَّه من شدة ألمه.

ولم يعلم بحقيقة الأمر حتى أخبروه وقالوا له: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [سورة هود، من الآية:٨١] الآيات.

وقال المفسِّرون عند ذلك: نَشَرَ جبريل أجنحته عليها وِشاحه، وضَرَبَ أوجههم بريشةٍ من جناحه فتَرَكَها ليس فيها محل العيون، لا أثر فيها للعيون، كأنَّ وجوههم لم تكن بها عيون أصلًا، كما أشار الله إلى ذلك في سورة القمر بقوله في قصة لوط والملائكة وقوم لوط: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ -والعياذ بالله- ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [سورة القمر، الآية:٣٧].

خُذ أيضًا مثال آخر: وهذا نبيُّ الله يعقوب قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٦٨]؛ مَدَحَه الله بالعِلم الذي علَّمه، ومع هذا فولده يوسف كان في مصر وما بينه وبينه ثمان مراحل، يعني: مسافة قريبة لا يعلم عن أَمْره شيئًا، ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٨٤]؛ وبينه وبينه ثمان مراحل، ما يعلم الغَيب.

يقول لأولاده: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٨٧]؛ يطلب من أولاده التحسُّس ليعثروا على خبره وهو لا يدري عن حقيقته حتى جاءه البشير بالقميص، كما هو مُبيَّن في سورة يوسف.

وهذا نبي الله نوح وهو هو لمَّا قال له ربُّه: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٢٧]؛ ظنَّ أنَّ ولده الفاجر أنَّه من أهله، ولم يدْرِ أنَّه ليس من أهله حتى قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [سورة هود، من الآية:٤٥]؛ ولم يعلم بحقيقة الأمر حتى قال له عالِم الغَيْب والشهادة: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود، من الآية:٤٦].

كان جوابه أن قال -يعني: نوح-: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة هود، من الآية:٤٧].

أيضًا مثال آخر: وهذا نبي الله سُليمان أعطاه الله الرِّيح ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ﴾ [سورة سبأ، من الآية:١٢]؛ وسخَّر له مَرَدة الشياطِين مع قدرتهم على الطيران في آفاق الأرض؛ ما كان يدري عن قصة بلقيس وجماعتها حتى جاءه الهُدهد الضعيف المسكين، وكان قد خَرَجَ بغير إذن، وكان نبي الله سُليْمان يتهدَّده ويتوعَّده على الخروج بلا إِذْن كما قصَّ الله في سورة النمل: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَا۟ذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [سورة النمل، الآيتان:٢٠،٢١]؛ فعَلِمَ من تاريخ اليمن -مَن هو؟ الهُدهد- ومن جُغرافية اليمن -يعني: الهدهد- ما لم يعلمه سُليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وهذا العلم الضئيل البسيط -علم تاريخٍ وجُغرافيا- أعطَى هذا الضعيف -يعني: الهدهد- قوةً، وكان له سلاحًا، وقوَّاه على سُلَيْمان حيث كان هو يعلم شيئًا يجهله سُليمان؛ ولذا قام غير مُبالٍ بالوعيد -الهدهد- مع أنَّ سُلَيْمان مَلكٌ نبيٌّ له هَيْبة المُلْك وهَيْبة النبوة؛ ومع هذا وَقَفَ ذلك الهدهد بين يديه وَقفة البطل غير مكترثٍ بالوعيد؛ وإنَّما قوَّاه أنَّه عَلِمَ شيئًا من جغرافية اليمن وتاريخهم، هذا الذي قوَّاه، لم يعلمه سليمان.

ونَسَبَ الإحاطة لنفسه ونفاها عن سُليمان، وقال: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [سورة النمل، من الآية:٢٢]؛ هذا النبأ بيَّن فيه بعض تاريخهم، هذا هو النبأ: أنَّهم كَفَرة يسجدون للشمس، وأنَّ ملكتهم امرأة، قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل، من الآيتَيْن:٢٣-٢٤]؛ الآيتان.

وعند خبر الهدهد إياه لم يعلم أيضًا حقيقة الأمر، مع إخبار الهدهد له بهذا الخبر لم يعلم حقيقة الأمر؛ فماذا فَعَل؟

قال: لأنَّه ما كان يعلم صِدْق الهدهد؛ ولذا قال مُخاطبًا له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [سورة النمل، من الآية:٢٧]؛ هذا يدلُّ على أنَّه أيش؟ ما يعرف الغيب. ﴿سَنَنظُرُ﴾؛ يعني: سنُرسل أحد إلى تلك المنطقة ويبحث وينظُر، ويأتينا بالخبر اليقين، ثم أرسله بكتاب كما في هذه الآيات من سورة النمل.

كل هذه الأمور، يعني: الآن أعطانا الأمثلة ثم وَصَل إلى نتيجة قال: كل هذه الأمور من عدم عِلم الأنبياء الكِرام والملائكة الكِرام، هذه الأمور من الغَيْب، كلُّه مِصداق لقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة النمل، الآية:٦٥].

ماذا تصنع هذه الأمثلة عندما تُطرَح بهذه القوة وبهذا الصِّدْق أيضًا في الطَّرْح، والنصح الذي كان عليه -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-، ماذا تصنع في القلوب؟ آيات تلو الآيات وحُجج تلو الحُجج، تضطر مَن يسمع إلَّا أن يقبل؛ إلَّا إن كَتَبَ الله عليه الشقاء وأغلَفَ قلبه وأعمى بصيرته، وإلَّا مَن يسمَع لا بد أن يقتنع اضطرارًا، وأن يقبل بمثل هذا الطَّرْح الوافي.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن وضَّح هذه المسألة، أَخَذ يربط من أمامه بالله عَزَّوَجَلَّ الذي أحاط بكل شيءٍ عِلمًا، لمَّا أقنع مَن أمامه بهذه الحُجج الواضحات بأنَّه لا يعلم الغَيْب إلَّا الله، ولا يطَّلع على ما في الصدور إلَّا الله، ولا يعلم خوافِي الأمور إلَّا الله. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٧٣]؛ فلمَّا بَسَطَ هذه المسألة أَخَذَ يعِظ الناس موعظة بليغة يُخوِّفهم بالله الذي أحاط بكل شيءٍ عِلمًا.

قال: وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن أجمَعَ العلماء على أنَّه أكبر واعظ وأعظم زاجر نَزَل من السماء للأرض؛ فهي أعظم موعظةٍ تُلقَى يتَّعِظُ بها الناس.

إلَّا أنَّه -مع الأسف- تمرُّ على آذانهم ولم تكن في قلوبهم، وهذا أكبر واعظ؛ لأنَّه أطبق العلماء على أنَّ أعظم المواعظ وأعظم الزواجر هو: واعظ المراقبة والعلم، يعني: أن تستحضر دائمًا أنَّ الله يعلم، يطَّلع عليك لا تخفَى عليه خافية.

وضَرَبَ العلماء لهذا مثلًا، خُذْ المثل: قالوا -ولله المثل الأعلى-: لو فَرضنا أنَّ هذا البراح من الأرض فيه مَلكٌ قتَّالٌ للرجال إن انتُهِكَتْ حُرماته، سفَّاكٌ للدماء إن انتُهكَتْ حُرُماته، ذو قوة وعزة ومَنَعة، وحوله حاشية وحوله جيوش، وحول هذا الملك بناته ونساؤه وجواريه؛ أيخطُر في بال أحدٍ أنَّ أولئك الحاضرين مجلس هذا الملك الجبَّار يقوم واحدٌ منهم بغمزة عينٍ إلى حرم ذلك الملك؟

أيخطُر بالبال ملك -يعني- عنده بطش وقوة وجيش، وقتَّال للرجال سفَّاك للدماء إذا انتُهكَتْ حُرماته، وحوله جيوشه، وحوله نساءه وحرمه؛ أيخطُر بالبال أنَّ أحدًا ممَّن حوله يتعرَّض لحرمه ولو بغمزة عين؟! أو رِيبة؟ لا وكلَّا، كلُّهم خاضعون خاشعون، كلُّهم خاضعون، خاشعةً عيونهم، خاشعةً جوارحهم، غاية أمانِيهم السلامة.

ولا شكَّ أنَّ خالق الكون -وله المثل الأعلى- أعظم بطشًا وأشدُّ نكالًا إن انتُهكَتْ حرماته، وحِماه في أرضه محارمه.

يوضِّح هذا الأمر: لو قِيل لأهل بلد: إنَّ أمير ذلك البلد يبِيتُ عالمًا بكل ما يفعلونه في الليل من الخسائس والدسائس؛ لباتوا متأدِّبِين.

مثل لو وَضَع كاميرات مراقبة على البلد في كل الشوارع وفي كل المناطق، ومَن فَعَلَ خطأً معيَّنًا سُفِكَ دمه، كلُّهم يبِيتون متأدِّبِين، ما ترى أي سفه؛ لماذا؟ لأنَّهم استحضروا مراقبة الملك بهذه الأجهزة له فامتنعوا.

ولهذا يقول الشيخ: «هذا أكبر واعظ»، أجمع العلماء وأطبَقَ لعلماء أنَّه أكبر واعظ أن يستحضر الإنسان عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به.

قال: «لباتوا متأدِّبِين لا يفعلون إلَّا شيئًا طيِّبًا، وهذا خالق السموات والأرض الملك الجبَّار يُخبرهم في آيات كتابه، لا تكاد تقلب ورقة واحدة من أوراق المصحف الكريم إلَّا وجدتَ فيها هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم:

- ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٩].
- ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٣٤].
- ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:١٩].

- ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٥٩].
- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ [سورة ق، من الآية:١٦].
- ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٣٥].
- ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [سورة يونس، من الآية:٦١].

فينبغي علينا جميعًا أن نعتبر بهذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم، وألَّا نتناساه؛ نحن مصيبتنا وبلاؤنا من تناسِي هذا الواعظ، وألَّا نتناساه لئلَّا نُهلك أنفسنا، ونعتقد أنَّنا لو كُنَّا في حضرة ملكٍ جبَّار من ملوك الدنيا يموت ويأكله الدود أنَّنا بحضرته وملاقاته لا يمكننا أن نفعل إلَّا شيئًا يسُرُّه ويرضيه، ملك من ملوك الأرض يأكله الدود إذا كنَّا في ملاقاته نعلم أنَّنا ما نفعل إلَّا الشيء الذي يسُرُّه ويرضِيه.

فعلينا أن نعلم أنَّنا بين يدي ملك السموات والأرض جَلَّوَعَلَا، وأنَّه أعظم بطشًا وأفظع نكالًا إن انتُهكَتْ حُرماته، وأنَّه عالمٌ بكل ما نُسِرُّ وما نُعلن؛ فعلينا أن نعتبر هذا لنتَّعظ به.

فقد بيَّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في حديث جبريل المشهور: أنَّ جبريل أراد أن يُبيِّن هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم لأصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لمَّا لم ينتبهوا له.

وإيضاح ذلك: إنَّ الله بيَّن لنا في آياتٍ من كتابه: أنَّ الحكمة التي خَلَقَ من أجلها الخَلْق والسموات والأرض، وخَلَقَ من أجلها الموت والحياة هو: أن يبتلِيَ خَلْقَه، أي يختبرهم بنُقطةٍ واحدة هي نقطة العمل.

- **من يُحسن عمله**: فيأتِي به حسنًا كما ينبغِي.
- **ومَن لا يُحسنه**: هذا الذي فيه الامتحان.

ولذا قال في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾، ثم بيَّن الحِكمة والعِلَّة الغائية قال: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [سورة هود، من الآية:٧]، ولم يقُل: «أكثر عملًا».

وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً﴾، ثم بيَّن الحِكمة في ذلك قال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الكهف، من الآية:٧].

وقال في أول سورة المُلْك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾، ثم بيَّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة المُلك، من الآية:٢]، ولم يقل: «أكثر عملًا».

فدلَّتْ هذه الآيات القرآنية أنَّا خُلِقنا لنُختبَر ونُبتلَى في شيءٍ هو إحسان العمل، ولا شكَّ أنَّ العاقل يقول: إذا كان ربِّي جَلَّوَعَلَا خَلَقَ الخَلْقَ والسموات والأرض والموت والحياة لأجل الابتلاء في إحسان العمل، يا ليتني عرفتُ الطريق إلى إحسان العمل لأنجح بهذا الاختبار.

وجاء جبريل يُبيِّن هذا المغزى الأكبر والمقصد الأعظم لأصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حيث قال للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يا محمد، أخبرني عن الإحسان**»؛ المعنى الذي خُلِقَ الخَلْق لأجل الاختبار فيه، فبيَّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّه لا طريق إلى الإحسان الذي خُلِقْنا من أجله إلَّا باعتبار هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم، وهو: مراقبة خالق السموات والأرض، والعلم بأنَّه رقِيب، علمه محيطٌ بكل شيء؛ ولذا قال له: «**الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

ولا شكَّ أنَّ مَن عَبَدَ الله كأنَّه يرى الله، وإذا تنزَّلَ فقال: «لا أرى الله»؛ فهو عالمٌ أنَّ الله يراه مطَّلعٌ عليه، مَن كان يعمل أمام المَلِك الجبَّار وهو مطَّلعٌ عليه ناظرٌ إليه؛ لا يمكن أن يُسِيء العمل؛ فلا بد أن يُحسن العمل.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية:٧]؛ في هذه الآيات القرآنية زاجرًا أعظم وواعظًا أكبر، والكلام لا يزال مستمر في بيان هذه المسألة -مسألة عِلم الغَيب-.

فمثل هذا الطَّرح -لاحظ-:

أولًا: بيَّن بُطلان وفساد قول مَن يدَّعِي في الملائكة والأنبياء أنَّهم يعلمون الغَيْب فضلًا عن الأولياء، وبيَّن هذا بالحُجج البيِّنات والدلائل الواضحات المُقنعة.

ثم أَخَذَ يعظ الناس ويربطهم بالله، يتوجَّهون إليه إخلاصًا وصِدْقًا وإنابةً وعبادةً وإحسانًا في العمل من نفس الباب الذي هو باب الإيمان بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أحاط بكل شيءٍ علمًا.

أتمنَّى أنَّ هذا الطَّرْح الذي قرأته عليكم الآن أن تسمعوه بصوت الشيخ وهو يطرحه في مسجد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا موجود في الأشرطة، فلعلَّ أحد الإخوة يُراجع وينشط في هذا، وفي آخر أيام الدورة لعلَّه يتم إن شاء الله توزيع شريط فيه هذا الموضع.

فأنا أودُّ أنَّ واحد منكم يتكفَّل في إخراج الشريط وأنا متكفِّل بنسخه على عدد الإخوة ويُوزَّع حتى تكون الفائدة أتم؛ لأنَّه «ليس كالنائحة الثَّكلى؛ كالنائحة المستأجرة» كلام تسمعونه منِّي غير كلام تسمعونه من عالم جليل وإمام مُحقِّق، وعنده من الصِّدْق والنُّصْح والبيان والوَعْظ.

فأسأل الله عَزَّوَجَلَّ لي ولكم التوفيق والسداد والهِداية والرَّشاد.

ومن درس الغد إن شاء الله نبدأ بدراسة هذا الكتاب [**منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**].

والله تعالى أعلم... وصلَّى وسلَّم على نبيِّنا محمد.